علوم القرآن وفواتحه

قراءة جديدة للنص القرآني

أحمد بن علي البيش

علوُّ القرآن وفوقيّته

مدخل:

كل القرآن، من أول آية فيه إلى آخر آية مستغرق في إثبات أنه لا يمكن أن يكون كلام مخلوق فضلًا عن أن يكون كلامًا بشريًا.

وقد تعددت أساليبه في ذلك، ما بين النص الصريح والإشارات اللطيفة في ثناياه، غير أن واحدةً من أهم تلك الأساليب التي طرقها أثناء عرضه هي الفوقية الشديدة لخطابه، والاستعلاء الكبير في توجيهاته وأوامره وجميع نصوصه.

هذه الفوقية والاستعلاء ليست دليل عدم بشرية هذا الكلام أو صنعه فقط، بل هي واحدة من سمات القرآن وإعجازاته المحيرة لتفكير المؤمن به وغير المؤمن.

والقرآن متنوع بين الإخبار والأحكام والعقائد. والإخبار منه القصص القرآني والإعلام بالمستقبل البعيد أو الماضي السحيق، وفي كل ذلك كان القرآن يستعرضه بفوقية غاية في الاتزان والمسابرة والمسايرة للقضية.

بيد أنه حين يحكي عن غيره وينقل كلامًا مضمّنًا لمخلوق، بشرًا أو غيره، فإنك لن تجد الفوقية تلك بمعناها الذي نرمي له هنا، وإن كان قد سبر تلك المقولات المنقولة لتوافق قوته واستعلاءه.

لستُ هنا بصدد تأصيل هذه الفوقية القرآنية المتنوعة بلاغةً وإعجازًا ونظمًا ومضمونًا، فإنها قضية محسومة سلفًا، فضلًا عن أنها قد أشبعت كتابةً وبحثًا، والزيادة فيها تكرارٌ لمكرر، واستدلالٌ لمثبت، ومحاولة للتدليل على وجود الشمس!

ولكني أحاول في قراءة تدبرية مع القراء الكرام من خلال **سورة البقرة** فقط أن نصل لمناقشة نماذج لهذه الفوقية.

سنشاهد كيف كانت لغة القرآن وإثباتاته مرتفعةً بارتفاع قائله سبحانه، وكيف أن الفرق بين هذا القرآن وبين كل كلام آخر كالفرق بين الله وخلقه.

كيف أن هذا الكتاب العظيم يأخذ بتلابيب المخاطَب، ويشدّه، ويصرعه، ويطرحه، وكأنه شاخص حقيقي له يدان!

وكيف أنه صوت مدوٍ وكبير، يأخذ بالأسماع عنوةً، فيجعلها سامعة له مستمعة مصغية، يتخللها صوته شاءت أم أبَت.

إن هذا القرآن سلطان، وإن له لسلطان، وإنه ليُصدر أوامره ونواهيه ونقاشاته كسلطان، لا يأبه بشيء، لأنه الحق، ونزل من الحق وبالحق، وكل مَن وما خالفه فهو باطل، ولا يأتيه باطل.

(١)

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾

هذه البداية، ثناءٌ تام مستغرق لكل ثناء، الكتاب يثني على قائله..

لقد اعتدنا واعتادت البشرية منذ نشأتها أن كل رسالة تُبعث فإنه يكون في بدايته ثناء للمرسل إليه، ليقبل الرسالة ويطمئن بها، أما القرآن فمن علوّه يحمد صاحبَه، ومن بدايته يثني على قائله.

وهو لا يحتاج للثناء على أحد غيره، فإنه مصدر الثناء، من أخذه وتمسك به فهو المحمود مطلقًا، ومن تركه فهو المذموم مطلقًا.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة:٢]

إن هذا الحمد التام المستغرق والمطلق في بداية هذا الكتاب حالة مغايرة للنمط العام المتبع بل وللأسلوب الخطابي البيني، وهو يدل ضمنًا على الفوقية الاعتبارية عن كل خطاب أو مكتوب.

الأمر لم يقف هنا، انظر للجزء المتمم للنص، ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾. إن هذا التقرير غاية في الفوقية والاستعلائية والتصادم في آنٍ..

ومن أجل أن تدرك ذلك، فإن القرآن أولَ ما خاطبَ = خاطبَ مشركين معاندين، وهو إلى اليوم يخاطبُ كل أحدٍ، مؤمنٍ أو كافر أو ملحد، ومع ذلك فهو يقرر ويحكم أن قائلة = ربُ العالمين، ليس ربَهم فقط، بل ورب كل عالَم!

تخيل ذهول ذلك الجاحد، وهو يقدم له هذا الحكم ويصدمه به من البداية على أنه بدَهي، وأنها حقيقة مفروغ منها، لا شك أن هذه الاستعلائية المتينة ستترك أثرًا غائرًا في نفسه ووجدانه مهما حاول المراوغة والهروب.

أكاد أتمثل هذه الحالة برجلين يتعاركان، في البدء وقبل كل شيء ضرب أحدهم الآخر بهراوة كبيرة بين عينيه، ومهما تماسك الآخر بعد هذه الضربة فإنه لا شك سينهار!

هذا ما فعله القرآن في النص الأول منه، قوة في طرح القضية، مهما حاول السامع المجافي التماسك إلا أنه سينهار.

إنه لم يُسلِّم بعدُ بالقرآن، ولم يعترف بأحقيته، ليجد أنه يصدمه بالحقيقة صارمًا، وبفوقية عظيمة: الثناء التام لله.. وهو ربُّ العالمين.

❊❊❊

(٢)

﴿الٓمٓ ١﴾

الم، وأخواتها في القرآن كله، وشبيهاتها، المص، المر، الر، كهيعص، طه، طسم، طس، يس، ص، حم، عسق، ق، ن، هذه الكلمات الإشارية حصرًا على القرآن وعلى طريقته في العرض واللفت فقط.

﴿الٓمٓ ١﴾ [البقرة: ١]:

ولقد تنوعت مماسك الناظرين في معاني هذه الكلمات الإشارية. وحسنٌ قبل أن نتأمل في قوة هذه الكلمات المفتاحية أن نستعرض أهم تلك الآراء التفسيرية فيها.

والتوجه الأبرز أنها كلمات إعجازية، تلفت انتباه السامعين بتحدٍ إلى أن هذا القرآن مؤلف من هذه الأحرف إلا أنكم لا تستطيعون الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه أو بمثل آية واحدة من آيات سوره.

وهناك توجه إلى أن هذه الكلمات مما خفي علمه عن البشر، وأنه مما اختص الله به نفسه.

وتوجه آخر أنها حروف تدل بالإشارة بحساب الجُمل على تاريخ الأمم والحضارات، ولكل حرف قيمته العددية.

هناك توجهات لتأويلات أخرى. والحقيقة أنه لا يهمنا مناقشة تلك التوجهات والآراء، وإن كان الأقرب إلى ما نطمئن له هو التوجه الأول، إلا أن هذه لمحة سريعة على أبرز ما قيل في دلالة معناها.

الآن لنعد إلى هدفنا، ﴿الٓمٓ﴾، وأخواتها، وأيًا كان المعنى فإنه استخدامٌ فوقي واستعلائي بالحروف والكلمات، لم يصدر من أي متحدث من قبل، ولم يدبجه كاتبٌ في كتابه أبدًا، ولا يقدر كتابٌ بعدُ أن يتضمنه، ولو فعل لاستُهجن ذلك منه ولَعدّ من العبث!

الحروف كلها للقرآن والكلمات، والجمل، يستخدم منها ما شاء، وبأي طريقة شاء، ثم لا يأبه بشيء!

كان بإمكان العربي الفصيح أن ينطق ولو بكلمة يتساءل عن فحوى هذه الحروف، لكن فوقية القرآن أخرسته، فهو يدرك أن استخدام القرآن لمفردات اللغة أقوى من جميع فصاحته وكل بيانه.

إن هذا الاستخدام لم يكن نزرًا في القرآن ولا عارضًا، بل هو مفتاح لأكثر من خمس وعشرين سورة فيه، ومفتاح لثاني سورة فيه وهي أكبر سورة وأهم سورة، ولقد نقف ويقف الجميع كما وقف السابقون أمام هذا الاستخدام الفوقي والاستعلائي مسلِّمين خاضعين لا نقدر على شيء، إلا أن ننظر من أسفل إلى هذا العلو بعجب!

❊❊❊

(٣)

﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾

قرر بروفيسور الرياضيات الملحدُ "جيفري لانغ" تحت ضغط التفكير والحالة النفسية أن يطالع في القرآن، بعد أن أهداه صديق نسخة منه، وفعلًا بدأ من بدايته، وحين افتتح سورة البقرة صدمه هذا الحكم ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾! [البقرة:٢]

يقول: أحسست برعشة تنتابني عندما قرأت هذه الآية، أخذت أفكر في نفسي: هل أنت تخاطبني؟! تولد لدي شعور غريب بأن القرآن كان يخاطبني فعلًا!![ضياع ديني، ص ٣٧].

كيف لهذا الكتاب أن يصدر حكمًا قاطعًا أنه لا خلل فيه؟ لقد استفزه ذلك لمواصلة المطالعة والبحث والتدقيق في القرآن ليثبت خللًا أو يجد بغيته وأجوبة تفكيره وأسئلته التي أرهقته!

لقد أعياه القرآن عن أن يجد بغيته، ولقد صرعه فأذعن وأسلم وسلّم بعظمة هذا الكتاب.

ولقد كانت هذه الآية بمثابة التحدي الصريح منذ الوهلة الأولى في مطالعة القرآن، لكنّه تحدٍّ غير مباشر، بفوقية واستعلائية منقطعة النظير، واستخدم لهذا المعنى اسم الاشارة "ذلك" الذي يدل على البُعد، فكأنّ مشيرًا يشير إلى علّو الكتاب بأصبعه، ثم يخاطب الناظرين والحاضرين بحكمه القاطع ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، والحاضرون والناظرون لا يستطيعون ردّ هذا الحكم أو إبطاله، تمامًا كما أعيا هذا الملحد -حينها- ذات المطلب.

وهو بهذا القرار والحكم لا يأبه بأولئك الفارغين الخاوين عن الفكرة وأدواتها، بل إنه يخاطب كل من يستطيع التفكير والبحث والنقد، يخاطبهم بهذا القرار، ويستفزهم به.

فلقد تحقق إذًا ما يدعوهم لبحث خلل أو مهمز أو ملمز، فهم باحثون ناقدون ذوو فكر، وهم مستَفزون من هذا الحكم الابتدائي في سطور هذا الكتاب الأولى.

وإلى اليوم يخاطبهم الكتاب من علّوه وفوقيته: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾. وإلى اليوم لم يجدوا فيه ريبًا، ولن يجدوا.

(٤)

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾

يستعرض القرآن في هذا النص [البقرة:١٣]، ونصوصًا قبله وبعده استفزازات أجوبة المعاندين، ويذكر بالتفصيل ردودهم العنيفة على عروض التصديق والإيمان به. وهو هنا يذكر العرض، ويذكر ردهم، ويذكر جوابه على ردودهم تلك.

وهي أجوبة غاية في الفوقية والإسكات، تتسم بالوضوح التام والعلو الكبير. إنه يعرض عليهم الإيمان من الأعلى، وبعلو ووضوح، ويدرك أنهم مخادعون أمراض، قد استمكن المرض من قلوبهم فأفسدها، لذا فإن أجوبته على ردودهم جرعات قوية من المعالجة التي لا ينفع سواها لمثل هذه الأمراض.

لم يقابل القرآنُ مخادعتَهم وترددهم بشيءٍ من الموانسة لهم والتلطف؛ لأنهم خطر مشتعل بسبب مرض الشك الذي قد يحرق كل شيء.. لقد قابلهم بالحزم والصرامة.

الأمر بدأ حين أعلن هؤلاء المرضى والأمراض في آنٍ أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر! ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:٨]، فكشف القرآن أولًا أن هذه دعوى كاذبة، ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

ثم كشف مقصدهم الخبيث الذي جرّهم لهذا الفعل السخيف، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [البقرة:٩].

ثم كشف حقيقة الأمر، ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة:٩].

ثم كشف منشأ ذلك من المرض الذي بدواخلهم، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [البقرة:١٠].

ثم كشف نيّته تجاههم، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة:١٠]!

ثم كشف ادعاءاتهم الزائفة وترويجهم الإعلامي الممجوج ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]!

ثم كشف كذبهم مرةً أخرى وثبّت الحكم عليهم، ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ [البقرة:١٢]!

ثم كشف تزييفهم للحقائق ورميهم لغيرهم بهتانًا، ﴿أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ [البقرة:١٣]؟

ثم عرّاهم أمامهم وأمام كل ناظر ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة:١٣]!

لتتصور هذه الردود القارعة والعلو الكلي الكبير تخيّل هذه المحاورة التمثيلية:

الدَّعِيّ مخادعًا: آمنت بالله وباليوم الآخر.

القرآن: لستَ بمؤمن، بل مخادع، ولن تخدع إلا نفسك، وأنت مريض، ولن تزداد إلا مرضًا، وأنت مفسدٌ.

الدعيّ: إنما أنا مصلح!

القرآن: بل أنت مفسد، والمصلحون غيرك، وقد آمنوا بي.

الدعي: أولئك سفهاء!

القرآن: بل أنت السفيه وأمثالك.

الدعي: أنا مستهزِئ.

القرآن: بل أنت مستهزَئٌ به، وسترى!

الآن، لعلك قد لحظت قوة وعلّو هذا الكتاب وردوده الحاسمة على هؤلاء المخادعين الذين اصطلح على تسميتهم بـ"المنافقين".

ولئن كان مطلوب من المؤمنين أن يتعاملوا بحذر مع هذا الصنف؛ لأنهم في الظاهر محسوبون عليهم إلا أن القرآن يتعامل معهم بالقوة والفضح والرضح، ويكشف خباياهم ويعرضها على الجمهور، فيجعلهم كأنهم رأي عينٍ لكل أحد.

وذلك أنهم ظنوا أنفسهم أذكياء، ومارسوا المخادعة باعتبار ذلك، ورجعوا إلى أشباههم يتضاحكون ويعلنون باختيال لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ١٤﴾ [البقرة:١٤].

ولئن مرَّ هذا التذاكي الواهم على أحدٍ فإنه لن يمر على القرآن، فأعلن بلا مواربةٍ ولا تلكؤ ولا حساب: أنتم مخادعون، أمراض، مفسدون، سفهاء، مستهزَئٌ بكم، أغبياء تشترون الخطأ وتتركون الصواب!

القرآن لا يقبل أن يكون في محل الضعف والاستغباء، ولا يقبل أن يقال عن المؤمنين به سفهاء، ويغار على أتباعه.

ولا يهتم بعد ذلك بردة فعل هؤلاء المخادعين، ولو وجدت فهو لها بالمرصاد فضحًا وحزمًا وحسمًا.

❊❊❊

(٥)

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾

لقد برأ ساحته أولًا «**لا ريب فيه**» ثم ها هو هذا الكتب العجيب، وباستعلاء تامٍ عن أن تلحقه ريبة، يفاجئ المجافين بهذه الافتراضية، وهي ريبتهم فيه.

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة:٢٣].

والحقيقة أنه في هذا النص القصير قد طرح أربعة ردود حاسمة، وكلها عقلية، وهي ردود فوقية استعلائية تهزأ بهؤلاء الذين تأبى أنفسُهم القرآنَ بينما تخضع له قلوبهم وعقولهم، وفوق ذلك لا يستطيعون رده أو لمزه بشيء!

أولًا: لقد بيّن ضمنًا أن الريب إنما هو من أنفسهم، وليس واقعًا في القرآن بتاتًا وأبدًا.. ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾.

ثانيًا: ولقد طالبهم إن كانوا في ريبٍ منه أن يصنعوا مثله سورة، ولو من أقصره.. ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾، بل أبعد من ذلك طالبهم في موضع آخر أن يصنعوا آية واحدةً مماثلة لآياته.

ثالثًا: ثم استصغرهم أن يفعلوا ذلك فُرادى، فطالبهم أن يتجمعوا ويتنادوا فيما بينهم لهذا الغرض.. ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾!

رابعًا: فقد عرَّض بكذبهم في ذلك الزعم الذي زعموه، أنهم في ريبٍ منه.. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. والمقصود: بل أنتم كاذبون.

أي علّو وفوقية أعجب من هذه؟! يطالبهم بالتجمع ضده إن استطاعوا، فما استطاعوا، ولم يفعلوا ولن يفعلوا..

(٦)

﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾

هذه الجملة الفوقية جاءت في سياق الخاتمة للآية السابقة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة:٢٣]، فبعد هذا التحدي الكبير جاء البيان التعجيزي مقدمًا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة:٢٤]، غاية التعجيز والفوقية والاستعلاء، لم تفعلوا فيما مضى ولن تفعلوا فيما يستقبل!

وبعيدًا عن موضوع التحدي، فإن الأسلوب الفوقي والواثق والحازم في هذه الجملة لا يخفى على قارئ.

إنه يقول لهم: أنتم عجزة عن إيجاد خلل، عجزتم سابقًا وستكون أكثر عجزًا فيما يستقبل.. وهم يسمعون هذا الاستعلاء الفصيح والحزم والثقة ولا يستطيعون حراكًا، ولا يردون بكلمة.. شلل تام!

إن هذه الجملة تهز الموافق الموالف المتبع بقوتها وفوقيتها، فكيف تفعل بالمعاند المعارض؟!

يقرر القرآن أنه -المعاند المجافي- لن يفعل شيئًا ولا يستطيع إثبات ريب أو خلل، ثم لا يملك غير أن يطأطئ رأسه، لا يستطيع النظر إلى أعلى.. حيث القرآن يمارس علوّه وفوقيّته!

إنه هناك يهدّ بمعوله أوهامهم، ويبدد بصرامته وساوسهم، ويثبت بصدقه كذبهم، ويفضح بصراحته مراوغتهم، ويصغِّر بفوقيته مكانتهم وتموضعهم..

لم تفعلوا.. وفعلًا لم يفعلوا..

ولن تفعلوا.. وفعلًا لم يفعلوا حتى الآن..

ويستمر: ولن تفعلوا.. إلى أبد الآبدين!

(٧)

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

تكمن قوة المتحدث حين يطوّع الأمور الصغيرة والعابرة لقضاياه الكبيرة والثابتة.

لا يتردد عن ذكر ما يخدم فكرته حتى وإن كان أمرًا صغيرًا لا يُلتفت له.

إنه ببساطة لا يأبه لما يقولون، واثق مما يطرق، هو من يقرر ما هي الأمور الصغيرة وما هي الكبيرة، وعليهم فقط أن يلتزموا قوله ولا يصدرون عن فكرته، وإلا فإنهم مبعدون مقصيون.. لا يفهمون.

هذا ما فعله ويفعله القرآن:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة:٢٦]

يطرق من القضايا ما يشاء، ويضرب بها الأمثال، يقرر أمرًا أو يذكر خبرًا، يتحدث عن بعوضة أو عن المجرة، هو من فوقيته لا يأبه بما يفكر به الصغار، بل القضية الأهم هي ما سيقرره.

إنه لقوته يصنع من البعوضة فما فوقها أو فما دونها قضية، وعلى الجميع التصديق بما يقوله ويقرره.

إنه حينئذٍ يقسم الحاضرين والناظرين إلى فريقين، يقسمهم بناءً على التصديق به وبقضاياه مهما ظنوا أنها دونيّة لقصور عقولهم، فريقٌ آمن ويعلم أنه الحق، وفريقٌ عاند ويجهل مقاصد قضايا القرآن فيضل في التفكير وفي النتائج.

يا للقوة، لم يكتفِ بقسمتهم إلى فريقين، مؤمنٍ به وجاحد، بل جعلهم عالم وجاهل!

وعلاوة على ذلك فقد طرد المعاندين الجاهلين الضالين، إنهم الفاسقون المبعدون عن

فهمه وإدراك أهمية ما يطرق من قضايا، وما يناقش من أحداث، وما يقرر من أحكام، وما يضرب من أمثال، وما يستخدم من وسائل، وما يحدد من أهداف، وما يحقق من نتائج.

إن هذا القرآن لا يهتم بالجمهور فيتناول ما يحبذون ويطلبون، إنه يقرر ما يتناول وعلى الجميع لزوم الهدوء والتصديق.

***

(٨)

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾

في هذا الخطاب الاستنكاري فوقيّة واستعلاء صارخ، يوبخهم القرآن بسبب عنادهم له، لكن بما لا يستطيعون نكرانه ولا يملكون دفعه.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة:٢٨]

فمضمون هذا التوبيخ أنهم جهلة غير راشدين، يجهلون ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.. فكيف يكفرون به وهو يخبرهم بكل ذلك؟!

ومضمونه أيضًا، أنهم عجزة ضعفاء، لا يملكون من أمرهم شيئًا، لا حياة ولا رزقًا ولا مصيرًا.. فكيف يجحدون القادر؟!

إنه بهذا التوبيخ والتهكم يفضح تكذيبهم، فهو مبني على جهل وعجز، وليس عن علمٍ وقوة.

ومن المناسب هنا نقل جملة قالها الإمام الطبري حول هذا النص، بتصّرف، وهي في فحواها تتضمن المعنى السابق: وهذه الآية توبيخٌ من الله جل ثناؤه، فعذَلهم بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾، ووبَّخهم واحتجّ عليهم في نكيرهم ما أنكروا من ذلك وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة [جامع البيان في تأويل القرآن ١/ ٤٢٤].

(٩)

﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

يستمد هذا القرآن فوقيّته من علوّ قائله سبحانه وتعالى، وهذه الفوقية والعلو لا تفرق حال الخطاب في نوع المخاطب وقربه أو بعده، كما ستلحظ ذلك في نصوص كثيرة حال استعرضت هذا الكتاب العظيم وتدبرت كلماته ومعانيه.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾[البقرة:٣٠]

قدمت الملائكة ما يشبه الالتماس على جعل خليفة في الأرض، ولن نناقش هنا حيثيات تقديمهم ذلك الالتماس، لكنّ القرآن سجّل أنهم سبّبوا الالتماس بالخشية من الإفساد وإراقة الدماء.

لكن الرد جاء حاسمًا وفوقيًا، ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وكان هذا الرد الكبير والحاسم كالتيار القوي الذي جعل تلك المخلوقات العظيمة ترى حجمها أمام حكمة الرب، فخرّت لتعلن: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ﴾ [البقرة:٣٢]، هكذا صدمهم الرد وهم في خانة الموالين، فأعلنوا خضوعهم لحكمته وتمام علميّته وكمالها، وهكذا يجب أن يكون تسليمنا أمام علوم هذا الكتاب وقوانينه وأحكامه. وهكذا يشعر كل مجافٍ له كذلك، وإن حاول إخفاء ذلك.

هذه الآية وهي رقم (٣٠) من سورة البقرة، وما تلاها من آيات إلى رقم (٣٣) لهي نماذج صالحة وقوية لفوقية القرآن واستعلائه على كل شيء.

فبعد أن رد عليهم بقوةٍ ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، جاء الرد الثاني، ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة:٣١]، وهذا تدليل على مضمون الرد الأول، أعلم ما لا

تعلمون، وإذا كنتم تعلمون شيئًا فما هي أسماء هـذه الأشـياء الظـاهرة لكـم؟! وإذْ لم تعرفوهـا فأنتم لحكمة الله بالاستخلاف في الأرض أقل علمًا ومعرفة.

ثم عزز برد ثالث، وهو على سبيل التبكيت: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة:٣٣].

لك الآن أن تتأمل في قوة هذه المحاورة، القوة القرآنية في الردود، والاستدلال السريع والقوي، وفي ضعف هذه المخلوقات العظيمة وهي تحاور صاحب القرآن سبحانه، فلا تملك غير التنزيه والاعتراف بالقصور.

فكيف بمن دونهم خلقًا وعلمًا وقربًا من مصدر القرآن؟!

***

(١٠)

﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾

كان هؤلاء يأمرون بما يأمر به، بالتصديق والإيمان والخير، لكنّهم لا يفعلون ذلك هم.

لو كان المخاطِب غير القرآن لكان ربما حرص على عدم فضحهم، فيستبقيهم في صفحه، لكنّه القرآن، لا يهتم لنوع أو عدد الواقفين بجواره إن كانوا يخادعون الناس باسمه ولا يلتزمون هم.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾[البقرة:٤٤].

النص هنا يحتمل معنيين، وكلا المعنيين غاية في الاستعلاء والفوقيّة:

المعنى الأول: كيف تأمرون الناس بفعل الخير وتتركون أمر أنفسكم فلا تلزموها بذلك.

و**المعنى الثاني**: كيف تأمرون الناس بفعل الخير وتنسون حالكم فأنتم لستم أهلًا لذلك، فلو رجعتم لأنفسكم ورأيتم ما فيها من فساد وشر لأدركتم أنكم غير مؤهلين لشرف أمر الناس بالخير..

كأن شخصًا من علوٍّ يقول لمتطفل: لا تنس وضعك فتتعامل بمثاليّة لست من ممثليها!

وهذا المعنى الثاني لا أدري إن كان أحدًا من الناظرين قد نبّه عليه أو ذكره في معنى الآية.

وعلى كلٍّ، فالمعنيان شديدا التوبيخ لهذه النوعية المريضة، وقد عاملهم بنقيض فعلهم، فهم يخادعون ويظهرون أنهم يأمرون بالخير، وهو يفضحهم فيظهرهم عراة من الخير الذي يشغلون الناس به.

وحتى يكون دقيقًا في توصيفهم فقد بيّن أنهم يفعلون ذلك عن خطيئة مقصودة، ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾.

والحقيقة أن جملة ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كذلك تحتمل معنيين:

الأول: تمارسون هذه الخسيسة وأنتم عالمون مدركون بفحشها. وهذا المعنى يتوافق مع المعنى السابق الأول لقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، فيكون المعنى الإجمالي: كيف تأمرون الناس بالخير وتتركون أمر أنفسكم به، مع أنكم عالمون تالون لكتاب الله.

الثاني: كيف تنسون أنفسكم حال كونكم تتلون الكتاب، فالكتاب يفضحكم ويعريكم أمام أعينكم وأمام الآخرين. وهذا المعنى يتوافق مع المعنى الثاني الذي أوردته لقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، فيكون المعنى الإجمالي: كيف تأمرون الناس بالخير وتنسون بأنكم لستم أهلًا لهذا الأمر، وحال كونكم تتلون الكتاب يتضح لكم من صفاتكم وما يقرره على أمثالكم بأنكم فعلًا لستم أهلًا لأمر الناس بالخير لفساد دواخلكم.

ثم ختم كل هذا الفضح لممارساتهم الظاهرة ولدواخلهم المعرّاة أمام أنفسهم والآخرَين بهذه الخاتمة التقريعية الفوقيّة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

وهذه الخاتمة هي الأخرى تحتمل معنيين كلاهما غاية في الفوقيّة والتبكيت والنهر:

الأول: فهلّا انتفعتم بعقولكم هذه التي في رؤوسكم، فتعملون الخير الذي تأمرون الناس به.

والثاني: أنه كنّى بقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عن "بل أنتم أغبياء" لا تدركون جهل وسخافة ما تصنعون.

إن هذا النصّ على قصره مليء بالفوقية والاستعلاء والتبكيت والتوبيخ المحق لهذه التصرفات وأصحابها، ولا يستطيع ممارسة كل هذا إلا القرآن الذي لا يأبه بأحد ابتداءً وانتهاءً.

***

(١١)

﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾

عليك أن تدرك أن القرآن الكريم قد رسم الحالة النفسية لبني إسرائيل حين كانوا، وصوّر بشكل دقيق طريقة تفكيرهم وأنماط سلوكياتهم والبواعث لها، كما أنه قدّم معالجات كبرى لتلك السلوكيات.

ومالم نفهم ونتفهم السرد القرآني لمشاهد الحركة والجمود الإسرائيلية فلن نستطيع تغيير واقعنا ابتداءً ولا التعامل بشكل جيدٍ مع الإسرائيليين الأحفاد في معاركنا الدائمة والممتدة معهم.

هنا يعرض القرآن واحدًا من تلك المطالب، وكيف تم التعامل معها: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥﴾[البقرة:٥٥]

ينبغي الإشارة ابتداءً إلى أن هذا المطلب الإسرائيلي أتى بعد سلسلة من عرض القرآن لمجموعة من الأحداث التي تجعل من هذا المطلب غريبًا ومستفزًا.

طلبوا من موسى ذلك بعد: أن أنجاهم من فرعون وذبْحِهم واستخدامِ نسائهم [البقرة، النص رقم ٤٩]، ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾.

وبعد فلق البحر لهم، وأنجاهم من ملاحقة فرعون وجنوده [البقرة، النص رقم ٥٠]: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠﴾.

وبعد أن عفا عنهم حين عبدوا العجل بعد كل ذلك، وهذا منتهى السقوط من جهتهم، ومنتهى الكرم والعفو من جهته [البقرة، النص رقم ٥١، ٥٢]: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٢﴾.

لقد كان المطلب هذا عبثيًا بامتياز، فكل أدلة صدق موسى أمامهم، باشروها ويباشروها يوميًا، ولقد كان الرد عليهم حاسمًا، وكان إخراج القرآن لهذا الرد فوقيًا واستعلائيًا.

كان جوابًا فعليًّا، والإجابات الفعليّة أبلغ وأرفع من الكلامية، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، والنص القرآني يوحي بأنه لم يكن بين طلبهم هذا وأخذهم إلا وقت طلبهم، فقد عقب بالفاء التي تدل على الترتيب والسرعة.

والنص القرآني كذلك صوّر المشهد الذي كانوا فيه حال احتراقهم بأنهم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، وهو يحتمل معنيين، **الأول**: أنهم كانوا ينظرون أنفسهم وهم يحترقون، **والآخر**: أنهم كانوا ينظر بعضهم بعضًا حال الاحتراق بالصاعقة، وكلا المعنيين يدلانا على اشتراك الحسرة لتحريق دواخلهم مع النار لتحريق ظاهرهم.

كان الجواب هذا معالجًا بشكلٍ مباشر لوسوستهم ودليل غضب من طريقة عرضهم وتقديمهم، ومعالجًا بطريقة أخرى لفلسفة سؤالهم، فإذا لم تستحمل أجسامهم نارًا صاعقة محصورة محدودة، فكيف تستحمل نورًا عظيمًا جبارًا غير محصور ولا يُحاط ولا يُحد؟!

وعلى كلٍّ فهو جواب فعلي حاسم وفاضح.

ومع أن القرآن قد ذكر أنه بعثهم بعد ذلك [البقرة، النص رقم ٥٦]، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦﴾ [البقرة:٥٦]، إلا أن الذي يعنينا كيف كان الرد الحاسم ابتداءً، وقد اقتضت الحكمة بعد ذلك ما كان.

فإن قلتَ: كيف يكون مطلبهم هذا مستلزمًا لتفكير عبثي غير واعٍ، فكيف طلب موسى ذات الطلب [الأعراف، النص رقم ١٤٣]؟! ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف:١٤٣].

قلتُ: لا يوجد أولًا ما يدل قطعيًا على توقيت مطلب موسى، هل كان قبل أو بعد طلب

قومه؟ وأيًا يكن، فلا شك ابتداءً أن موسى عليه السلام قد تأثر ببيئة قومه، وكانت له مطالب وتصرفات -وإن كانت مخففة- إلا أنها فيما يبدو من تأثره بحديث قومه وما يُحدِثوه من جلبة وإثارة.

هذا أمر، والأهمُّ أن موسى كان طلبه للرؤية طلب شوق وحب واطمئنان، كطلب إبراهيم رؤية إحياء الموتى [البقرة، النص رقم ٢٦٠]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة:٢٦٠]، يدل على ذلك قولة القرآن لمطلب موسى ومطلب قومه، فقومه قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، فقد ربطوا التصديق بالرؤية، أما موسى فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فهو استئذان للطلب قبل أن يكون طلبًا، وسبقه بالتصديق «ربِ..».

وأيضًا فلقد كان موسى يسارع في هوى قومه، ويحب لهم الخير جهده، وهذا واضح من سؤالاته المتكررة لربه لتلبية شؤونهم وطلباتهم، وحين أدرك بعد أن «**أخذتهم الصيحة**» فداحة اشتراطهم بادر بطلب ذلك هو ليشبع رغبتهم تلك بأنه قد رأى هو، وها هو يخبرهم عن مشاهدة بعد أن أخبرهم عن سماع! لكن يُشكل على هذا أنهم أساسًا قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، فيظهر من خطابهم أنهم كانوا لا يصدقونه لشخصه.

وبعد هذا كله، فقد كان الجواب غير المباشر الذي عنيناه في بداية الكلام عن طلبهم هو جوابًا كذلك لموسى، والفارق أن أولئك أخذتهم الصيحة هم، وفي طلب موسى دُكَ الجبل، وخرَّ موسى صعقًا.

يجب الآن أن أتوقف عن هذا الاستطراد، ولكنّه يجدر هنا أن أشير إلى علّو سبق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فمع أنّه وصل إلى الحضرة العظيمة، وسمع صرير الأقلام، فكان قاب قوسين أو أدنى، إلا أنه لم يسأل هذا السؤال، ولم يطلب هذا المطلب، وحين سُئل: هل رأيت ربك؟ قال: نورٌ أنّى أراه. [رواه مسلم: ١٧٨].

(١٢)

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾

أكثر عينة بشرية نوّع القرآن في ذكر أحداثها وأيامها هي بنو إسرائيل، ومع أن القرآن قد عالج نفسياتهم بكثير من الأساليب ونقل عددًا من الطرق في ذلك إلا أنه وفي كل مرة يوبخهم على سوء تفكيرهم وتقديرهم للمواقف والأحداث والمطالب والامنيات.

وهو في ذلك كله يكشف خبايا أنفسهم والأسس التي بنوا عليها مطالبهم وسائر تصرفاتهم الغبية.

واحدة من تلك التفاعلات النفسية السيئة لمجموع بني إسرائيل هو ما ذكرته هذه الآية، ولقد كانت المعالجات هازئة موبخة من جهة، وفوقية استعلائية من جهة ثانية، وتجمع بين ذلك والمعرفة الدقيقة بنفسيات هذه الفئة ونمط تفكيرها من جهة أخرى:

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة:٦١]

نلفت ابتداءً إلى أن هذا النص أتى بعد عرض سلسلة من المطالب الإسرائيلية التي يمكن أن يطلق عليها أنها استفزازية وغبية واستجرابية، وقد كانت الردود عليهم لظروف مرحلةِ مطالبهم هي الاستجابة إلى حدٍّ كبير، رغم أنها كانت تتحول إلى لعنة عليهم ووبال..

لنستعرض أمثلة على ذلك، يهمني ذلك حتى ندرك الوضع الزمني للنص، والحالة النفسية لبني إسرائيل، وطريقة معالجتها:

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ

تَنظُرُونَ ٥٥﴾ [البقرة، النص:٥٥]. هذا النص يسبق الآية التي نتحدث عنها ببضع آيات، وهو يكشف الحالة العقلية والنفسية لهم، ولقد كان الجواب هناك هو الفعل المباشر والسريع، وهو بحدِّ ذاته إجابة كافية لتفكيرهم الذي جلب لهم هذا المطلب.

وبعد أن أظلهم بالسحاب من حرِّ الشمس وسقاهم شراب المنّ حلوًا كالعسل وأطعمهم لحم طيرن، لا يتعبون في البحث عن ظلهم أو شرابهم أو طعامهم، بل هو معهم حيثما حلّوا [البقرة، النص رقم ٥٧]، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾.

وقبل ذلك نجاهم من سكين فرعون، ومن استخدامه لنسائهم، وفلق لهم البحر فرارًا من ملاحقة فرعون وجنوده [البقرة، النص رقم ٤٩-٥٠]، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٠﴾.

أيضًا، أمرهم بدخول القرية فيغفر لهم ويأكلوا فيها ما لذَّ وطاب، ويعيشوا فيها رغدًا واسعًا، فحرّفوا أمره وظلموا [البقرة، النص رقم ٥٨]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾، وطلبوا السقيا فتفجرت لهم عصا موسى ماءًا مقسوم بينهم [البقرة، النص رقم ٦٠]، ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٦٠﴾.

هذا النعيم كله، وتحقيق المطالب، وعلى مستويات متعددة، ثم يتذمرون ويسألون موسى بطريقة استفزازية وغير مؤدبة «**ادع لنا ربك**»، ربك! متخففين من عبء الاعتراف بالربوبية، ويطلبون البقل والقثاء والفوم والعدس!

يبدو أن تفكيرهم معكوس، وفطرهم منكوسة، واختياراتهم بائسة لمجرد التجريب

والهزء، وأذواقهم بدائية!

ولذلك فقد كان الرد فوقيًّا، دل عليه اللفظ قبل المعنى.. «**اهبطوا**»!

لكنه قبل ذلك كعادته وبّخهم على سوء اختيارهم وسخافة عقولهم ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟! فهذا استغرابٌ يتضمن التوبيخ، ويمكن تأويل لفظة «خير» هنا بمعنى «فوق»، بدليلين اثنين، **أولًا**: مقابلتها للفظة «**أدنى**»، **وثانيًا**: ما تضمّنه لفظ «**اهبطوا**».

لقد كان يحاول أن يرفع من مستوى ذواتهم، تفكيرهم، اختياراتهم، أذواقهم، مطعمهم ومشربهم، مسكنهم وأرضهم... لكنّهم فضّلوا الأدنى في كل شيء؛ لذا كان الجواب متجانسًا مع مستوى دنوّهم «**اهبطوا**».

لن نستغرق كثيرًا في قوة مفهوم اللفظ ومدلوله ومناسبته، فإن الحروف تكاد تنطق قوةً ووضوحًا، فلنتجاوز كل ذلك إلى الردود الحاسمة والفوقية الاستعلائية لمطلبهم التافه هذا!

لقد كان الطلب والسؤال: نريد بقلًا وقثاءً وفومًا وعدسًا وبصلًا، بدلًا من طعامنا السلوى اللحم، وشرابنا المن الحلو!

فكان الجواب الفوقي الاستعلائي المتراكب:

أولًا: أنتم حمقى، في عقولكم شيء، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾.

ثانيًا: أنتم سفليون دنيئون، لا تحبون الرفعة ومعالي الأمور ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾.

ثالثًا: أنتم عاجزون كسالى، وأغبياء مثقلون به، فهذه المطاعم المطلوبة متوفرة ومنتشرة ولا تحتاج لطلبٍ من موسى أن يدعو ربه ليوفرها لكم ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، انزلوا أي مدينة قريبة، وستجدون فيها كل هذه الأصناف، فاتركوا عنكم هذا الحمق المستفحل، الممزوج بالعجز والكسل والتواكل.

وهذا الرد بالذات من الردود المسكتة: لا تسأل شيئًا دنيئًا متوفرًا متوافرًا، الطريق سالكة أمامك فاذهب وابتع وكُل.

رابعًا: أنتم أذلّة، استمرأتم حياة الأذلة، ومطالب الأذلة، وطريقة تفكير الأذلة، لا تستحقون حياة الأعزة المرتفعين والمترفعين عن سواقط الأمور ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، ولا يمكن تجاوز جزالة هذا الرد العقوبة، فانظر كيف قال «**ضربت**»، التي تفيد الملاصقة والطبع، مع ضربة سابقة فلا يسقط الطابع اللاصق، وانظر كيف ضُرب طابع الذلة «**عليهم**»، ولم يقل "بهم"، ليدل على أن ضربة طابع الذل كانت من فوقهم "على هاماتهم" من فوق رؤوسهم، فالذلة راكبة عليهم، وكيف يستطيع عزةً من كانت الذلة مضروبة عليه من فوقه، فهو تحت الذلة دومًا؟!

خامسًا: ﴿وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾، ضربت عليهم كذلك، فهم ملازمون للفقر والفاقة، جائعة نفوسهم دومًا؛ ذلك أنهم لم يكونوا يسألون للحاجة بل للاستفزاز والتعنت، وإلا فمن يستعيض اللحم بالبقل؟!

وقد كان الناظرون لهذا النص يرون أنه ضرب عليهم الفقر، فأصبحوا مساكين، لكنّ ما يمكن أن نفهمه من تركيبة النص أيضًا أن الذي ضُرب عليهم ليس مجرد الفقر -وإن كان قد ضرب عليهم هو أيضًا في فترة ما- بل الشعور الدائم بذلة الفقير والمسكين الذي هو معدم لا يجد، ونفسه لعَّاعة متطلّعة، فيكون أبدًا ذليلًا حقيرًا مُستحقرًا!

وهؤلاء وإن كانوا أغنياء المادة إلا أن أعراض الفقر والجوع ملازمة لشخصياتهم وأنفسهم أبدًا، ومن تأمل حالهم يجد ذلك واضحًا.

سادسًا: ورجعوا بعد كل ذلك بغضب الرب عليهم ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، والبوء هو الرجوع بالحصيلة النهائية، وهذا من الردود الفوقية العظيمة في مقابلة طلبهم السخيف، فحين أكرمهم بالمن والسلوى، الشراب الحلو ولحم الطير، فزهدوا فيه، وطفقت نفوسهم الدنيئة تبحث عن البقل والبصل والخبز؛ ظفروا فعلًا، ولكن بغضب الرب وسخطه عليهم!

إن هذه الردود الستة لهي ألجمة وضعت على أفواه هؤلاء فما يستطيعون أن ينطقوا كلمة، وذلك أن سخفهم كان قد بلغ مستويات خطيرة، وهزؤهم تكاثر وتطاير واستمر، واعتدوا في

كل شيء، في تهكّمهم واستهزائهم وفي مطالبهم واختياراتهم وفي طريقة عرضهم، بل وفي أذواقهم الفاسدة، وهذا ما ختم به النص كَعِلَّةٍ لقوة ردوده وزواجره الستة تلك ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

والآن، عُد واقرأ النص مرةً أخرى لترى الفوقية والاستعلاء، وإن شئت فابدأ بالقراءة من النص رقم (٤٩) حتى تصل إلى هذا النص رقم (٦١)، من سور البقرة، لترى المشهد من جميع زواياه وبتدرجه وكيف بدأ وختم.

❊❊❊

(١٣)

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾

حين يستعرض أحدهم تفاصيل ما تقوم به بشكل سريٍّ في خلا وخلو، ثم لا تستطيع حتى مجرد الإنكار، فاعلم أولًا: أنه يراقبك من علّو، فينظر أدق تفاصيلك، واعلم ثانيًا: أنه حازم قوي مستعلٍ، لا يخشى تكذيبك له.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة:٧٦]

في هذا النص يستعرض القرآن حالة من نوادر بني إسرائيل المضحكة في عهد نزول القرآن ذاته، فقد كانوا (إذا لقي بعضُهم المؤمنين اعترفوا لهم بصدق النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم وصحة رسالته وهو ما تشهد له التوراة، ولكن حين يخلو اليهود بعضهم ببعض يتلاومون فيما بينهم بسبب هذه الاعترافات؛ لأن المسلمين يقيمون عليهم بها الحجة فيما صدر عنهم من الاعتراف بصدق النبوة). [مختصر التفسير].

ففضح القرآن كلا حالتيهم، والأولى لا يستطيعون إنكارها، فهم يعترفون للمؤمنين بوجود نصوص تثبت صحة القرآن ونبيّه، ولو أنكروا لفضحهم المؤمنون.

ولكن في الثانية، وهي حين يخلو بعضهم ببعض فيتلاومون فيما بينهم، كان بإمكانهم الإنكار، فيُحرجون القرآن، ومع ذلك لم يفعلوا!

فالقرآن تحدث بما يتناجون به بينهم، وكلُّهم له مبغض، فلم يقدروا على رد فضح القرآن لهم.

وعلى كل حال، فالفوقية القرآنية الاستعلائية في هذا النص تكمن في أمرين:

الأول: أنه أخبرهم بخلواتهم وأسرارهم، وهذا يدل على فوقيته واستعلائه المادي

والمعنوي.

الثاني: أنه فضحهم بذلك وليس عنده شهود من غيرهم على ما فعلوا، ومع ذلك فقد تقاصروا عن رد فضحه لهم ولم يتجاسروا على تكذيبه.

وأي علّو أكبر من أن يقول شيئًا، لم يخرجوه إلى غيرهم، ولم يطلع عليه سواهم، وهم أحرص شيء على تكذيبه أو إثبات خلل فيه ثم لا يفعلون؟!

❊❊❊

(١٤)

﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾

إن من مظاهر العلو التي قد تصادفها الوفاء بالعهد أو الوعد رغم مرارة الوفاء به أو ظروف وملابسات ذلك.

إن وثقت بالمقدمة الآنفة، فاعلم أن القرآن مارس هذا النوع من الفوقيّة والعلو:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة:٨٠]

في هذا النص ادعى طائفة من الناس -وكالعادة هم بنو إسرائيل- أن النار لن تمسهم إلا لأيام فقط، وهم -كالمعتاد كذلك- كاذبون محرفون يمنّون أنفسهم بهذه الأمنيات ويكذبون على الأمم الأخرى أن هذا مذكور في دينهم.

يشهد لهذا قولهم في نصٍ آخر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [آل عمران:٢٤]

فيؤخذ من هذين النصين المتشابهين أمران: **الأول**: أنهم يشيعون هذه الكذبة وينشرونها. **الثاني**: أنهم يدعون أن هذا من دينهم.

والحال أن هذا ليس مقصودنا، والمقصود هنا هو الرد الفوقي الاستعلائي القرآني على هذه الدعوى، وهو ردٌ متفرع.

أولًا: هل قلتم هذا الأمر بناءً على اتخاذ وعد وعهد من الله فهو عنّده؟ ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا﴾، وانظر هنا كيف قال: «**عند الله**»؛ لأنهم عند غيره يتخذون مثل هذا الزعم!

ثانيًا: لو كان الأمر كذلك ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾، وهذا النص يحتمل معنيين:

الأول: أنه من بقية ما قاله الرسول لهم، ثقةً في ربه، فيكون قال لهم: هل اتخذتم عهدًا عند

الله أن النار لن تمسكم؟ فإذا كان كذلك فلن يخلف الله لكم ما وعدكم به، أم هو زعمٌ منكم لا عهد لكم فيه؟

الثاني: أنها جملة اعتراضية قرآنية، وهذا ما أميل له، وما يتناسب مع قوة الردود القرآنية، فيكون الخطاب ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾ موجهًا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولهؤلاء المدعين. ويكون المعنى مستقلًا متكاملًا، فمهما يكن لن يخلف الله عهده.

ثالثًا: أو هل هذا الزعم الذي تدعونه بلا علم حقيقيٌ؟ ﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. ويمكن أن يحتمل هذا النص معنيين، **الأول**: أنه تكملة تساؤل النبي صلى الله عليه وسلم لهم، فيكون من كلامه الموجه لهم. **والثاني**: أن «**أم**» هنا بمعنى "بل"، وهذا سائغ في العربية، فتكون على هذا هكذا: بل هؤلاء يقولون كلام على الله بدون علم، فيدعون لأنفسهم كذبًا عهدًا منه.

رابعًا: وسواءً كان هذا من بقية كلام النبي وتساؤله أو من ردود القرآن المباشرة بمعنى "بل"، فإنه قد أكدّه بقوله: «**بلى**»، في النص الذي يليه مباشرة [البقرة: ٨١]، ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾، فعلى التقدير الأول يكون المعنى: بلى، هو كما رأيتَ يا محمد، يقولون على الله بغير علم وينسبون له عهودًا لم يتعهد بها.

وعلى التقدير الثاني يكون المعنى: بلى، إنهم كما قلنا، يقولون على الله كذبًا، وينسبون له عهودًا لم يتعهد بها.

خامسًا: ذكر القرآن تتمة تدحض كل افتراء لهم، وفوق ذلك تدهس أمنياتهم واستكبراهم بهذا الافتراء من الأساس، فقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة، النص رقم ٨١، ٨٢]، فهذا النص يضع العهد المعياري الذي وضعه الرب سبحانه وتعالى لدخول النار أو الجنة، وعليهم وعلى مَن

يراهم أن يعرضهم على هذا المعيار، وسيتبين له أين موقعهم.

ومع كونه معيارًا للجميع إلا أنه بالنسبة لبني إسرائيل معيار فاضح، فهم إنما بنوا هذا الافتراء والوهم على افتراء سابق له، وهو ما ذُكر في النص رقم (١٨) من سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾، فقد اتخذوا هذا الافتراء -أنه لن تمسهم النار إلا أيامًا- ليبنوا عليه افتراءً آخر عنصريًا، أنهم أبناء الله وأحبابه، فكان ذكر المعيار في التعذيب نسفًا لأحلامهم السخيفة ومزاعمهم الكاذبة كلها.

ولعلك قد لاحظت أنه أعاد ذكر المعيار في نص المائدة، وبصورة أقوى، وسيأتي معنا ذلك كنموذج صالحٍ آخر لفوقيّة القرآن واستعلائيته.

***

(١٥)

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾

التوصيف الدقيق، ووضعه بكل شفافية ووضوح وقوة، هي سمة من سمات القرآن الفوقية والاستعلائية.

فلا يقبل القرآن المراوغة أو اللف والدوران حول الحقيقة أو توصيفها:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة:٨٨]

هذا النص، وهو رقم (٨٨) من سورة البقرة يضعنا في صورة إحدى غمغمات بني إسرائيل وتهربهم عن توصيف حالهم وحقيقة واقعهم بشكل استكباري.

وجوابهم هنا بأن "قلوبهم غلف" هو عن استفهامٍ استنكاري ظاهر أو مقدّر.

ظاهر: جوابًا على الاستفهام في النص الذي يسبق هذا، وهو قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة:٨٧]، فكان جوابهم: «**قلوبنا غلف**».

أو **مقدر**: جوابًا لاستفهام النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه حول عدم تصديقهم بنبوته رغم قيام الأدلة على صدقه، فكان جوابهم: «**قلوبنا غلف**». وأيًا يكن فهذا ليس مقصودنا.

فمقصودنا تحليل جوابهم ثم تحليل الرد الحاسم والحازم عليه.

كان جوابهم: «**قلوبنا غلف**»، و"غلف" بناءً على القراءتين تحتمل معنيين.

الأول: **غُلْف**، جمع أغلف، وهي قراءة القرّاء العشرة. أي: قلوبنا مغلّفة مغطاة، مطبوع عليها فلا تستوعب أو تفهم. وهذا جواب استهزائي تافه، وخلاصته: لا تتساءلوا، فنحن لا نفهم؛ لأن قلوبنا مغلفة عن فهم هذا.. فلا تحاولوا مراجعتنا.

والثاني: **غُلُف**، جمع غلاف، وهي قراءة ابن محيصن، ورواية اللؤلؤي عن أبي عمرو، من القراء السبعة، وقراءة ابن عباس والحسن البصري وغيرهم. أي: قلوبنا أغلفة وأوعية للعلم، فلا نحتاج لنصحكم وكلامكم. وهذا جواب استكباري استعلائي كما هو واضح.

وردّ القرآن على كلا المعنيين المحتملين لجوابهم صارخ وفوقيٌّ واستعلائيٌ عظيم، لكن ثمَّة استشكال في الجمع بين المعنيين فكل معنى نقيض للآخر بناءً على القراءات، وإن كانت القراءة الثابتة المشهورة المقطوعة هي قراءة «**غُلْف**» التي بمعنى مغلفة مغلقة لا تفقه.

بيدَ أن الذي تميل إليه نفسي هي القراءة الأخرى، «**غُلُف**» بمعنى أوعية علم، لثلاثة أسباب:

الأول: أنه استكبار استحق رد القرآن القوي كما سترى.

الثاني: ولأن قولهم «**قلوبنا غلْف**» بمعنى مغلفة لا تفقه فيه تصغير لأنفسهم، حتى وإن كانوا يقصدون الاستهتار والاستهزاء، ففي النهاية هم يتهمون أنفسهم وقلوبهم بعدم الاستيعاب.

الثالث: ولأنهم كانوا يتباهون على العرب بأنهم أهل علم وكتاب، وغيرهم أميون، وقد ذكر القرآن ذلك عنهم.

وقد دعاني ذلك للبحث عما يوفق بين المعنيين أو يرجح، فوجدت نصًا جميلًا للنحاس، في كتابه [إعراب القرآن ١/ ٩٦]: وجُوزَ أن يكون "غُلْف" جمع غلاف، وحُذفت الضمة لثقلها.

فعلى هذا يصير المعنى وفق للقراءتين "غُلف" -بسكون اللام وضمها- أنهم زعموا أنفسهم أوعية علم وأغلفة له، فلا يحتاجون لمن يدلهم أو يستفهم عليهم أو يعترض.

فهذا النص من الإمام النحوي النحاس أجلى المعنى من حيث العربية، وعلى ضوئه ننتقل للرد القرآني على جوابهم الاستكباري هذا.

لقد كان الرد باستعلاء أكبر، وفوقيّة مطلقة: «**بل لعنهم الله بكفرهم**»، ليس الأمر كما

تقولون إنكم أوعية علم فلا تحتاجون لناصح أو تصغون لناقد أو تنتبهون لمستفهمٍ عن وضعكم، بل الحال أنكم ملاعين قد زاغت قلوبكم، مطرودين قد تباعدت دروبكم، فلا تنتفعون بكلام ناصح، ولا تستقيمون لتوجيه ناقد، ولا تتأملون في استفهام مستفهم مستنكر لتقلباتكم وتضارب أفعالكم وأقوالكم.

هكذا يقرر القرآن بكل حزم ووضوح واستعلاء، الحقيقة الثابتة أنكم ملاعين، فلا تؤمنون ولا تسمعون ولا تستفيدون..

ولأن القرآن دقيق في إحكامه، وعدلٌ في أحكامه فقد استثني، «فلا يؤمنون إلا قليلًا».

❊❊❊

(١٦)

﴿بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ﴾

النص القرآني التالي كله فوقيّة وعلو واستعلاء، بدايته وأوسطه وخاتمته، أمره ونهيه ثم حكمه وختمه على حكمه.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣]

لقد استعرض هذا النص باحترافية عالية عدة قضايا تناولها مع بني إسرائيل:

أولًا: أخذ الميثاق على التزام أوامر الكتاب بقوة ونشاط ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾.

ثانيًا: رفع الجبل فوقهم كعلامة تصديق وطريقة تهديد ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾.

ثالثًا: التأكيد على الأمر بالاستماع، وهو هنا الطاعة ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾.

رابعًا: التنصيص على لؤم ردهم، واستخفافهم بالأمر والعلامة والتهديد ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾، وقولهم هذا يحتمل معنيين، **الأول**: أنه مقال حال، وذلك أنهم سمعوا الأمر فخالفوه وعصوه. **والثاني**: أن مقال قول بألسنتهم، وهذا هو الاحتمال الأظهر، انسجامًا مع حمق بني إسرائيل ولؤمهم المعهود.

خامسًا: التنصيص على سبب وقوعهم في هذا اللؤم المتكرر ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾. والمقصود أن قلوبهم تشرّبت حب العجل فعبدوه من دون الله، ولن نتجاوز هذه الجملة حتى تُجلى بعض الشيء:

فانظر كيف عبّر بالتشرب، وهو رفع المائع من الأرض وامتصاصة وتغلغل المتشرَّب في المتشرِّب، فكانت قلوبهم ماصَّة لكل مائع غير ثابت.

وانظر كيف ترك ذكر لفظة **"حب"**، إذِ التقدير: **"وأشربوا في قلوبهم حب العجل"**، للتنبيه على حقارة محبوبهم والانتقال مباشرة إليه لفتًا لبشاعة ما وقعوا فيه، وهو ما قد لا يتناسب مع ذكر كلمة **"الحب"** اللطيفة في حروفها ومعناها في ذاتها.

وانظر كذلك كيف جعل **"قلوبهم"** ظروفًا لـ **"العجل"**، فجعل كأن المائع الذي امتصّوه وتغلغ في قلوبهم هو العجل بذاته ورعونته، فكيف سيكون قلبًا متداخل مع عجل؟!

نقف هنا حول هذه الجملة، وننتقل للرد القرآني على كل ذلك الهزء والحمق الذي ارتكبوه.

لقد كانوا مع كل ما سبق وفعلوه يرون أنفسهم مؤمنين، ويبدو أن ذلك كان سجية فيهم وطبيعة لم ينفكوا عنها ولم تنفك عنهم؛ ولذا صدمهم بقوله: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ولتدرك حجم جريمتهم، وقوة وصرامة هذا الرد، فإنهم مع تشرّب حب العجل في قلوبهم يزعمون أنهم مؤمنون! ومع أنهم قالوا **"سمعنا وعصينا"** إلا أنهم ما زالوا يرون أنفسهم مؤمنين!

لقد أخذ عليهم الميثاق ليأخذوا الكتاب بقوة، فلم يأخذوه بالكليّة!

إن كان هذا هو الإيمان الذي تقولون، فبئس إيمان هو. وإن كان هذا ما تؤمرون به في التوراة فبئس ما تؤمرون به.

إن القرآن هنا يقول لهم بوضوح: لا ترهبوا الناس بإطلاق مسميات براقة على أفعالكم كذبًا وزورًا، فما تقومون به وتقولونه ليس إيمانًا، ولم تؤمروا به، ومع ذلك تَنزُلًا لئن كان هذا فعلًا ما تؤمرون به فبئس ذلك.

وهذا كما ترى غاية في العلو والفوقيّة، فجعل القرآن نفسَه ومتبعَه هو الحاكم على أفعال هؤلاء وتصرفاتهم بل وما في كتبهم إن وُجد، لا مجرد دعاويهم الكاذبة.

❊❊❊

(١٧)

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾

واحدٌ من الردود الذكية جدًا، هو الرد بالازم المنطقي على الدعوى المجردة من الدليل النظري أو الواقعي.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة:٩٤]

يدّعي بنو إسرائيل أنهم مشتركون في الدنيا مع بقية البشر، وفق نظرة استعلائية يتداولونها، لكنّ الأمر بالنسبة للآخرة مختلف، فالجنة خالصة لهم من دون بقية البشر.

وقد كانوا يصرحون بذلك علنًا، وذكر القرآن عنهم ذلك في أكثر من نصٍّ، منها أيضًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]

وهذا الزعم واحد مما كانوا يستكبرون به على الناس، يميزون أنفسهم به، ويعاملونهم على أساسه، وكان الناس في غفلة عن جواب مثل هذه الدعوى، فهم يرون في بني إسرائيل أهل كتاب، أشرف من بقية المشركين وعبّاد النار؛ لذا يمكن أن تمر مثل هذه المزاعم عليهم دون أن ينتبهوا.

لكن حتى وإن انتبهوا إلى كذب هذه الدعوى، فبمَ يردون عليها؟ فالآخرة من الغيب، ولا علم من دون كتاب، وبنو إسرائيل هم حصرًا أهل الكتاب حينئذ.

وبعد ذيوع أمر القرآن، ظل بنو إسرائيل على هذا الزعم، وهم في قرارة أنفسهم يدركون أنهم يكذبون لا غير.

ولقد كان رد القرآن على دعواهم هذه ذكيًا وفوقيًّا وفاضحًا في آن. ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾!

لماذا تبقون في هذه الدنيا وتعبها إن كنتم ضمنتم الجنة فعلًا؟! تشهّوا الموت وأريدوه.

ردٌ ذكيٌ: لأنه دمغهم بهذه الحجة والطريقة القصيرة والسريعة والمربكة.. تمنّوا الموت إذًا!

وفوقيٌّ: لأنهم تصاغروا أمام طلبه، فلم يجرؤ أحد منهم على التطاول وقبول الطلب، رغم سهولة تطبيق ما طلب من جهة نظرية.

وفاضحٌ: لأنه حين تحداهم بتمني الموت لم يفعلوا وقتئذٍ، فتبين للحاضرين أنهم كاذبون، ولذا ختم بقوله: «**إن كنتم صادقين**»، وحين لم يفعلوا وقع الضد مباشرة.

إلى هنا، ورغم قوة ردود القرآن وإلزاماته كما ترى، إلا أن الرد المتحدي والمستمر في تحديه حتى بعد تلك المناظرة السابقة هو ما أتى في النص الذي يلي هذا مباشرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥﴾ [البقرة:٩٥]

إنه يقرر ويحكم بأنهم لن يتمنوا الموت أبدًا؛ لأنهم يدركون فداحة أفعالهم التي لن توصلهم الجنةَ التي ادعوا أنها خالصة لهم من دون الناس.

قرر من علوّه كل ذلك عنهم ولم يستطيعوا رد قراره أو مخالفته ولو لإحراجه..

يقرر ذلك وهو يعلم أنهم صغار، صغار في تفكيرهم وردهم، وصغار في حياتهم، فهم أحرص ما يكونوا على الحياة كيفما كانت واتفقت. وكل ذلك قرره عنهم كما في النص الذي يلي هذا أيضًا [البقرة، رقم ٩٦]، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾، وهم لا يستطيعون ردًا أو تكذيبًا أو عملًا بغير مقتضى تقريره عنهم، ولو لفظيًا فقط.

(١٨)

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّـجِبْرِيلَ﴾

صاحب الكلمة العليا لا يمكن أن يترك مَن في صفه، ولا يساوم بهم، ولا يقدمهم أو أحدًا منهم قربانًا لودِّ طرف آخر أو احتراسًا منه.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّـجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُـدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧﴾ [البقرة:٩٧]

قدّم بنو إسرائيل سؤالات للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فإن أجاب عليها آمنوا به وصدقوه ظاهرًا وباطنًا، بعد أن كانوا مصدقين له باطنًا ويكذبونه على الملأ، فأخذ عليهم المواثيق على ذلك، فأعطوه.

فلما أجابهم على سؤلاتهم وأقرّوا بصحة إجاباته، قالوا بقي أن تذكر لنا اسم الملك الذي يأتيك بخبر السماء!

فقال لهم: جبريل.

قالوا: ذلك عدونا.. لو كان ميكال لاتبعناك وصدقناك!

هكذا تقول الروايات في شأن هذه المناظرة [رواه أحمد٢٤٨٣، وغيره، وأصله في البخاري٤٤٨٠]، وجبريل وميكال ملكان عظيمان مقربان من الرب العظيم، بل هما أقرب ملكين إليه، والتفريق بينهما محاولة بائسة للتشغيب على المؤمنين المصدقين، وكأن للملكين نفوذ على النبي أو على ما ينزل به أو مَن في الأرض. والشأن أنهما رسولان كريمان يقومان بمهمتهما فحسب!

لقد ذكر القرآن هذه المناظرة، فكان رد القرآن ودفاعه عن السيد جبريل دفاعًا عظيمًا فوقيًّا، وجبريل عليه السلام بلا شك جديرٌ بذلك الدفاع.

ولقد اتخذ القرآن عدة دفاعات متتالية ومتدرجة ومتصاعدة في قوتها:

أولًا: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾، فلم ينص على بني إسرائيل في العداوة هنا، ليجمع معهم كل من يمكن أن يعادي جبريل عليه السلام، وهذا أبلغ في الدفاع والمناصرة، فكل من عاداه ويعاديه أو سيعاديه مشمول بهذا الجواب، وجبريل مشمول بالمناصرة أبدًا أمام كل عدوٍ محتمل.

ثانيًا: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، هذا التوكيد صارخ في القوة والنصرة، فلم يتلكأ، أو يبرر أو يذهب لحلول وسط أو يسمع استشكالاتهم على جبريل، بل يعلنها مؤكدًا لها بوضوح: إن جبريل هو صاحبي، وهو الرسول الذي ينزل بالوحي، وهو روحُ اللهِ المطَهرُ.. اسمعوا هذا فلا يمكن أن أخفض الصوت به!

وهنا لفتةٌ لطيفة لا يمكن أن أتجاوزها، فإن النبي كان مأمور بالخطاب هذا كله ليلقيه على الفئة المعادية لجبريل.. «**قل مَن كان عدوًا...**» لكنه حين وصل إلى هذا الموضع قال: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، وكان النسق أن يقول: "**فإنه نزّله على قلبي**"؛ لأنه المتكلم. ومع أن ذلك سائغ من حيث العربية إلا أن فيه معنى كبيرًا لما نحن بصدده، فإن الخطاب كان للنبي محمد أن يجيب، فلما أتى إلى جبريل تدخّل القرآن فتحدث بنفسه عن جبريل، فحقق ثلاثة معاني في هذه الالتفاتة من المتكلم إلى الآمر:

الأول: حظوة جبريل، إذْ تناول القرآن الدفاع عنه بنفسه حتى حال المناظرة.

الثاني: أن الخطاب حين أصبح من القرآن رأسًا أفاد بإشارةٍ ما إلى عدم اختيار النبي وتخيره فيمن يُنزل القرآن على قلبه.

الثالث: أن الخطاب بعد هذه الالتفاتة جعل جميع الأطراف بصورةٍ ما سواء أمام خطاب القرآن، فكأن النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بمحضرٍ أمام بني إسرائيل يلقي عليهم الحجة، وهم يتفاوضون معه لتغيير جبريل بميكائيل، فإذا صوت القرآن يقطع على الجميع

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، فهذه المسألة محسومة، والأمر فيها ليس لهم ولا للنبي.

ثالثًا: من الدفاعات القرآنية عن جبريل ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فبين أن جبريل لا يخرج عن إذن ربه وأمره، فاعتراضهم على جبريل اعتراض على الرب، وهذا تشريف لجبريل أيّما تشريف.

رابعًا: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وتحتمل أن الضمير عائد للمُنزَل على قلب النبي أو للمنزِل وهو جبريل، فقد نزل تصديقًا لما نزل به من قبل، وهذا ما تميل له النفس، ومضمونه كيف تعترضون وتعادون جبريل؟! وهو الذي نزل بالكتب السابقة ومنها كتابكم، فإن عاديتموه الآن نسفتم كل ما تستندون له من كتاب.

خامسًا: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، كان من أسباب عداوتهم لجبريل -كما تذكر الروايات في المراجع السابقة- أنه ينزل بالحرب والهلاك، إلى غير ذلك، بينما ينزل ميكائيل بالخضرة والقطر والخير، فكان الدفاع القرآني هو التنصيص على العكس، فهو نزل بـ **"الهدى"** في كل الأمور للجميع، وبـ **"البشارة"** لمن صدقه، والعكس لمن لم يصدقه، وهنا مكمن القوة في الرد، فأنتم لم تصدقوه فنالكم ما نالكم.

سادسًا: وهو الرد الذي أتى في النص الذي يليه، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة:٩٨]، ومضمونه غاية في القوة، فمَن يكون عدوًا لهؤلاء جميعًا أو لأحدٍ منهم فإنه بحكمٍ أوليّ كافر، ونتيجة نهائية عدو لله، وعدو لهؤلاء جميعًا، فلا تفريق بين جبريل وميكال أو محمد وموسى.

ثمة دفاعات خلال النصين القرآنيين السابقين، وأخرى في النصوص اللاحقة، فالنصوص من [٩٧ إلى ١٠٥] من سورة البقرة تناولت الدفاع عن جبريل بصورٍ وأشكالٍ ودفوعات متنوعة ومتعددة، لك أن تنظرها حيث أشرت لك لتدرك ذلك بنفسك، فقد أطلت عليك هنا.

(١٩)

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾

هذا النص القرآني القصير يتحدث عن قضية الناسخ والمنسوخ، وهي واحدة من القضايا الكبيرة والمثارة تاريخيًا وحديثًا تجاه القرآن ومفهوم علم الله السابق واللاحق.

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة:١٠٦]

والحقيقة الواضحة التي تكاد تنطق بها الآية بل قد نطقت أن القرآن يقرّ بهذه القضية كحقيقة من حقائقه وخصيصة من خصائصه وواحدة من مجالات علوه وفوقيّته واستعلائيته الشديدة.

كعادته لا يأبه بما سيقولون ولا بما سيثيرون من شبهات وأقاويل، فهي في الأخير لا شيء أمام إحكامه وحِكَمه وبيانه.

يمكن أن نحلل ذلك كالتالي:

القرآن باتفاق الجميع ينص على علم الله الأزلي والأبدي. وهو مع ذلك ينص على النسخ والإنساء، ولا سبيل أمام المنكرين إلا نكران هذا النص أو التعسف في تأويله.

وعلى كلٍ، فإن القرآن وهو يعرض هذه الخصيصة فيه ليثبتها باستعلاء كبير.

فإنه في نص الآية وما يليها قد عرض حقيقتين لا يمكن نكرانها، وعلى ضوء إثباتها يمكن مناقشة النسخ والإنساء:

الحقيقة الأولى: القدرة المطلقة، ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؟ فإن أقرّوا بهذه الحقيقة؛ فإن النسخ من الأشياء القادر عليها، وإن لم يُقرّوا، فتقرير ذلك أولًا أولى وأهمّ.

الحقيقة الثانية: الملك المطلق، ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؟

[البقرة:١٠٧]، والمالك له حق التصرف في كل شيء في ملكه. وفي هذا النص -وهو مباشرة بعد النص السابق- تبكيت للمنكرين للنسخ، فهم يتدخلون بين المالك وما يملك.

وإذا ما اجتمعتِ القدرة والملك، فإن رد شأن صاحبه عبثٌ وتطاول لا يجني مقترفه من ورائه شيء غير الخسران، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٧].

إن الإنزال الأول شأنه وبقدرته، وإن محوه أو تبديله أو تغييره أو رفعه شأنه وقدرته وملكه، وله القدرة الكاملة والملك التام، فلا تعترضوا على ما لا تعرفون ولا تطيقون.. هكذا يخاطب القرآن مِن أعلى مَن يشغِّبون في موضوع النسخ والإنساء.

يجب أن أقف هنا، ويبقى أن أنبهك إلى أن النصوص بعد هذا [١٠٦ إلى ١١٠] من سورة البقرة، قد سارت في معالجة موضوع النسخ، وعالجت آثاره وتبعاته بشكل قوي، وبتنبيهات خطيرة، وإشارات لطيفة، ويبقى عليك أن تتأملها وتستشف مقاصدها ومغازيها.

❊❊❊

(٢٠)

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾

في واحدةٍ من مشاهد فوقيّة هذا الكتاب وعلوه، يصف كل زاهدٍ عن الملة الحقة والدين القويم بالسفه، فيختم عليهم بهذا الختم النهائي الذي لا يُزال إلا إن هم رغبوا فيه:

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة:١٣٠]

وأيًا يكن معنى السفه في هذا النص، إلا أنها جميعًا معانٍ مذمومة، وسنختار هنا أن معناه "**الجهل**" وهو المعنى الذي اختاره أبو جعفر الطبري في تفسيره، بيدَ أن السفه يزيد عن معنى الجهل بعنصرين، السعي في جهله، والفرار عن قبول العلم، حتى لكأن الجهل قد خالط النفس فطبع فيها وعليها.

وهو ما عبّر عنه النص، فقد قال: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن﴾، وحرف "عن" يدل على المفارقة والمباعدة، كما يقال: رميت السهم عن القوس، فإن فارق وابتعد عن العلم والحق فقد اقترب -وبلا شك- من الجهل، وبنفس الحركة يسعى في جهله حتى يكون سفيهًا.

والسفيه أيضًا: من يضع الأمور في غير مواضعها، ولا يحسن التدبير، ولا يعرف مصلحته أين تكمن، بل لا يعرف مصلحته وهي ظاهرة غير كامنة.

وهذا هو حال من رغب عن هذه الملة، فقد أتته بيضاء كأنها نهار، وهو يردها ويلحق بعد الجهلاء السوداء كأنها ليل!

وهذا التوصيف للسفه هو الزيادة عن كونه جهلًا.

وعلى كلٍّ، فالذي يهمنا هنا هو وصم القرآن لهؤلاء بالسفه، فهم يتركون الملة الجيدة، يفارقونها، ويسعون خلف جهلهم المظلم. ومهما ادعوا التنوير والعلم والحذق فإنهم لن

يخرجوا عن السفه الذي وصمهم به.

وانظر كيف قدم السفيه بالذكر ﴿مَن﴾، ثم فسّره بنفسه بعد، ﴿سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾، ليُشعر أن السفه قد أحاط به فلم يقتصر على شيء منه.

وإذا ما رأيتَ بعقلٍ إلى حال مَن رغبوا عن الملة؛ فإنك تجدهم متخبطين في السفه والجهل، وإن رأيت منهم عقلًا في جزئيّة ما.

ولعمر الله أنك لترى السفه عيانًا فيمن رغب عن جزء من هذه الملة، فكيف بمن رغب عنها بالكلية.

حسبي هنا، وألفت نظرك إلى أن هذا النص قد ورد ضمن سياق قصة إبراهيم عليه السلام، في سورة البقرة، والتي بدأت من النص رقم [١٢٤]، وفي سياق القصة نصوص أخرى صالحة كنماذج لفوقية القرآن وعلوه.

منها: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]، فالجواب فوقيٌّ بامتياز، مع ملاحظة أن الدعوة من إبراهيم، وهو في خانة الموالين.

ومنها: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦]، ولو تأملت فقط قوة واستعلاء جملة «**ثم أضطره**» لرأيت علوًّا عجيبًا.

ومنها: الإقفال بـ ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾ [البقرة:١٣٤]، فإنها إقفالة وخاتمة شديدة الاستعلاء والفوقية إذا ما وقفت عندها، سواءً في هذا الموضع أو في الموضع الآخر رقم [١٤١] سورة البقرة، إذا ما تأملت السياق السابق للموضعين.

***

(٢١)

﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾

هذا هو أسلوب بني إسرائيل الدائم في تعاملهم مع بعضهم ومع غيرهم، يريدون أن يصبغوا الناس بصبغة واحدة، لونٍ واحد، ما لم يكنه الناس وإلا فإنهم ليسوا على هُدى أو هَدي.. حتى جاء القرآن فهدم هذه الطريقة الفجة والوقحة في تعالي هؤلاء الحمقى!

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾ [البقرة:١٣٥]

والمفهوم **يهوديًا**: إن لم تكن يهوديًا فأنت في ضلال وعمى، و**نصرانيًا**: إن لم تكن نصرانيًا فأنت في عمى وضلال، وهكذا صاروا يفصِّلون الهدى على مقاساتهم، ويصبغونها بلونهم فقط.

هذا الأمر مستفز، لكن رد القرآن كان فوق ما يتخيلوا، لقد نسف استعلاءهم هذا من الأساس، في ردودٍ فوقيّة متتالية..

أولًا: ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، ليس الأمر كما تقولون، بل ملة إبراهيم فقط هي التي إن كانها الناس فقد اهتدوا، وحصرًا، أما أنتم ومِلَلِكم فلا.

ثانيًا: ﴿حَنِيفٗاۖ﴾، والحنيف هو المائل، وهذه الكلمة بديعة واستعلائية بامتياز.

إن القرآن يصور هؤلاء اليهود والنصارى بجماعتهم كالحشد من العُمي والضُلال يسيرون في طريق الغواية، ينطلقون نحو الهاوية بجهل، لا يخرجون عن السرب المضلِل، إلا "**إبراهيم**" وملّته وأتباعه فقد خرجوا عن سرب الضلال هذا، فمالوا عنه، قبل أن يصلوا للهاوية التي يتجه نحوها الجميع.. فلا أحمدَ من هذا الميل!

ثالثًا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وهذه الجملة غاية في العلو والرد الفوقي، وهي تحتمل

معنيين:

الأول: إن الهداية ليست كما زعمت في الكون مع اليهود أو النصارى، بل في ملة إبراهيم الذي لم يكن مشركًا كاليهود والنصارى.

والثاني: إن الهداية في ملة إبراهيم فقط، وليست كما يزعم اليهود معهم، ولا كما يزعم النصارى معهم، وليست مع الفريق الثالث المشركين، بل حصرًا في إبراهيم وأتباعه.

وكلا المعنيين قوي وفوقي، إلا أن المعنى الأول أشد تبكيتًا لليهود والنصارى، فقد زعموا أن الهداية حصرًا عليهم، فإذا بالقرآن ينسبهم للشرك!

رابعًا: وضّح القرآن في النص الذي يليه صيغة الهداية الصحيحة، فلم يتركها لتشهياتهم وأحلامهم: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة:١٣٦]

وهو بهذا يضع طريقته فقط -وحصرًا- كشرط للهداية والانضمام في ركاب المهتدين.

خامسًا: ينص على أن هذا هو الطريق الوحيد للهداية، لا غير، فإن آمنوا به وسلكوه فهم مهتدون، مع أتباعه **"المسلمين"**، «**بمثل ما آمنتم به**»، ولاحظ كيف أنه لم ينسف حصرهم للهداية فيهم فقط، بل وجعلها في أتباعه ومؤمنيه، ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ [البقرة:١٣٧].

سادسًا: إن لم يعجبهم طريق القرآن وتحديده لمسار الهداية، فهذا لأنهم أصلًا في عداء مع الهداية، فهم المغضوب عليهم دومًا والضالون أبدًا ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة:١٣٧].

سابعًا: الهداية حصر على أتباع القرآن **"المسلمين"** فقط، وهو اللون الذي اختاره الله للناس، وليس لون أحسن منه، ولا طريق لعبادة الله الحقه كطريقه: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة:١٣٨]، وهذا يجعل من زعمهم كأن لم يكن، فلا

هم على صبغة الله، ولا صبغة الله معهم، وليسوا بأهل هداية حتى يختبروا الناس باتباعهم.

هذه سبعة ردود متتالية شديدة العلو والفوقية، وبقي ردود أخرى سأطيل عليك إن سردتها، لكن عليك ملاحظتها فيما تبع من النصوص القرآنية، وهي النصوص [١٣٩ إلى ١٤١] من سورة البقرة، لتدرك أن القرآن قد جاء على جميع نواحي زعمهم فأبطلها ودمرها، ووضع لهم خيارًا جديدًا ووحيدًا للهداية، إن قبلوا به وسلكوه وإلا فهم على ضلالتهم القديمة والمعهودة.

❊❊❊

(٢٢)

﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾

يتخذ بنو إسرائيل ومن شايعهم من كل حدث فرصةً للمز الموحدين، وقد حكى القرآن كثيرًا من تشغيباتهم تلك وردها، ودافع عن أتباعه دفاعًا عظيمًا.

من ذلك اعتراضهم على انصراف الموحدين عن قبلتهم السابقة **"بيت المقدس"** وتولية وجوههم لقبلتهم الجديد مكة.

﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة:١٤٢]

والحق أنهم أثاروا بلبلة في أوساط ضعاف النفوس، واستقطبوا شريحة المنافقين ومالها من أبواق لإثارة القضية في الأوساط.

والقرآن كان لجميعهم وجميع ما أثاروا بالمرصاد، فقد أوضح القضية ومسبباتها وآثارها وكل متعلقاتها، ورد على أقاويلهم وإثارتهم بفوقيّة واستعلاء تام كما سترى، وهو ما أوقع بني إسرائيل في حرج شديد، ووجوههم كلحة لا تعرف الحرج، لكنّ القرآن أخرج كذلك خبايا ما كانوا يخفون.

أولًا: سماهم سفهاء، جهلة، وخفاف عقول، ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾. وسترى بكل وضوح كمية السفه الذي اكتنفوه.

ثانيًا: كبتهم، فكل الأماكن لله، فما علاقتكم في الأمر؟ وهذا ردٌ إجمالي كليّ، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾، كأنه يقول: من حيث الأصل فالأماكن كلها لله، فلا تتدخلوا فيما فرض أو صرف أو بدّل.

ثالثًا: نوّه بشرف أتباعه في مقابلهم، في النص الذي يليه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ

وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، أي جعلهم عدولًا خيارًا، ليسوا سفهاء طائشين كحال المعترضين.

وهنا لفتة لابد أن أشير إليها، فإن السفهاء -بنو إسرائيل- حين استنقصوا المسلمين ولمزوهم إلى درجة إشارتهم الاستنقاصية، «**ما ولاهم**»، كأننا نراهم الآن، والمسلمون يمرون، وهم يتحادثون بينهم أو يحدثون بعض المنافقين، ويشيرون بأعينهم أو أصابع أيديهم ناحية المسلمين، ويهمسون: «**ما ولاهم عن قبلتهم**»؟ فلم يذكروا حتى اسمهم استنقاصًا!

فلما كان كذلك، نوّه القرآن بأتباعه وشرّفهم وجعلهم عدولًا خيارًا وسطًا.

رابعًا: لم يكتف بذلك، بل نقل أتباعه من خانة الاتهام والاستخفاف، إلى منصة الشهادة، فجعلهم شهودًا على بني إسرائيل وغيرهم، يقررون مصيرهم بشهادتهم ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ﴾ [البقرة: ١٤٣].

خامسًا: رد على الشبهة التي أثاروها، من أن صلاة المسلمين سابقًا باطلة وغير مقبولة، فأوضح أن هذا زيف غير حقيقي، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] إنه يهتم بأدق تفاصيل أتباعه، ويرد على جهل المعترضين في معرض ذلك.

سادسًا: زيادةً في إغاظتهم أوضح القرآن أنه صرف القبلة إرضاء لمحمد صلى الله عليه وسلم، وحبًا لما يحب ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وهذا الأمر بالنسبة لبني إسرائيل غاية في القهر، فهم أمّة الكتلة من الحسد.

سابعًا: فضحهم القرآن، وبين أن حادثة صرف القبلة يعرفونها، ومثبت في كتبهم، وهي حادثة تدل على صدق أتباع القرآن، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:١٤٤]، وأكد ذلك بأسلوب غاية في القوة، فجعل معرفتهم بأمر نقل القبلة كمعرفتهم بأبنائهم، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

وهنا لفتة أخرى، فمع هجوم القرآن القوي على جهلهم وسفههم، إلا أنه أنصفهم في

النص رقم [١٤٦]، حين عبّر بدقة عن طبيعتهم فقال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة:١٤٦]، فذكر ذلك عن فريق، وإن كان هو الأغلب إلا أنه نبه على فريق آخر منهم لا يكتمون.

ثامنًا: فضح القرآن التضاد الذين بينهم، وكيف أنهم يعترضون على أتباعه الموحدين بينما كل فريق منهم لا يتبع قبلة الآخر، ولا يمكن أن يتبعها، مع أن كل فريق اخترع قبلة بناءً على هواه وشهوته، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة:١٤٥].

وهذا النص مليء بالردود الفوقية والعلو القرآني، والردود القوية، كما هو الحال في النصوص من [١٤٢ إلى ١٥٢]، من سورة البقرة، وهي التي ناقشت موضوع تغيير القبلة وعالجته وقررت عدة مبادئ في التعامل والحوار والرد.

أرى أن مهمتي هنا قد طالت، وفي الأصل أنا أنبهك فقط لتعود للنص وترى بعينك وفكرك العجب في القوة والتقرير والفوقية والعلو.

***

(٢٣)

﴿يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾

اعتاد العربي تعظيم آبائه، والحق أن غير العرب كذلك، اعتادوا تعظيم آبائهم وما يصلهم عنهم، تراث وتقاليد وعادات.

كان يقطع بعضهم على بعضهم الحجة إن زعم أن تراث الآباء معه وفي صفه، يتكئ عليها. ولقد كان الجميع ينقطع عند هذه الحجة، يجعلونها حَكَمًا فيصلًا.

وحين أتى القرآن، وأمرهم أن يتبعوه حاججوه بذات الحجة، وسخفًا ظنوا أنْ سينقطع كما سواه!

لكن القرآن رد على هذه الحجة بقوة وعلوّ، لقد أتى على حجتهم فقضى على عمودها، فجعلها كأن لم تكن، ثم استهزأ بهم وصوّرهم كالقطيع الذي لا يعرف غير الصوت المرتفع.. فانظر كيف فعل ذلك..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠]

دعاهم أتباعُ القرآن لاتباعه، فردوا بحجتهم القديمة مستعظمين لها، فتدخل القرآن مباشرة:

أولًا: آباؤكم هؤلاء الذين تحاججون بهم جهلة، لا يعقلون مطلقًا، ولا يهتدون لخير، فكيف تتبعونهم ابتداءً؟ وكيف تجعلونهم خيارًا عن القرآن؟ ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟

لقد دمّر القرآن حجتهم من أساسها، وجعلها غير صالحة للوضع الطبيعي، فكيف تكون حكمًا وفيصلًا في مقابل القرآن؟!

إنه ردٌ صادم لم يكونوا يتوقعوه، ولذلك كانوا فيما بينهم يلمزون أتباع القرآن بأنهم سفَّهوا آباءهم!

وهذه طبيعة القرآن، فهو لا يقبل أن يكون في مقابل أيٍّ كان.. فكيف في مقابل مَن لا يعقل ولا يهتدي؟!

وهنا، انبهك إلى جمع القرآن لهذين الوصفين عليهم، لا يعقلون ولا يهتدون، فهم لا يعقلون ما يُدلون عليه، ولا يهتدون له ابتداءً، لضعف بصائرهم.

ثانيًا: بعد أن محى حجتهم بالآباء، أتى على الأبناء المحتجين بآبائهم، وصوّر حالتهم تلك كأنها رأي عين نشاهدها، ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءَۢۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: ١٧١]

لقد جعلهم كالقطيع من البهائم، يسمعون جلبة الصوت المرتفع فيتبعونها. فهم يصيحون احتجاجًا بآبائهم ولا يعرفون حجة آبائهم ولا دليلها ولا صحتها، كالبهيمة، تتحرك بصوت الراعي وهي لا تدري ما يقول ولا ما يقصد!

يالله، لقد وصفهم وصفًا دقيقًا. ولعلك تلحظ هذا في زمننا هذا، بل وفي كل زمان، يتبع الجهلة والسقط الصوت المرتفع، ولا يفهمونه ولا يدرون مضمونه ولا صدقه ولا أحقيته، فقط هو صوت مرتفع، وجلبة، وقوة، فهذا كافٍ للانسياق وراءه.

إن القرآن يخاطب هؤلاء أن يستعملوا عقولهم، وأن يسترشدوا بها، ولا يكونوا مجرد أوعية سمّاعة للأبواق، ولا يكونوا مجرد آلة لترديد ما يقال.. «**فهم لا يعقلون**».

أعد قراءة النصين السابقين لتدرك حجم الدمار الذي خلَّفه القرآن في المحتجين بالآباء عليه، وفي المحتج بهم.. وكذلك يفعل القرآن..

❊❊❊

(٢٤)

﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾

يستخدم كثير من المبطلين بعض التصرفات غير الصائبة من أتباع القرآن للتشنيع عليهم والهجوم الإعلامي الحاد، ويضخمون الخطأ ذلك، وكأن الكرة الأرضية قد انهدمت بمن فيها، ويتغافل هؤلاء عن جرائمهم وجرائرهم الكبيرة والكثيرة والمقصودة.

ويحصل أن تحدث ردّات فعل ضعيفة وإرباك في صفوف أتباع القرآن، ناهيك عن عموم البسطاء.

لكن القرآن له ردةُ فعلٍ أخرى غير هذه، مع التأكيد على أنه لم يحد عن العدل والحق في التوصيف والمعالجة.

واحدةٌ -كمثال- من تلك الحوادث التي استغلها المبطلون، ما فعله المشركون يوم أخطأ بعض المسلمين فقتلوا مشركًا في شهر حرام، فاستخدمت قريش كلها أبواقها للتشنيع والتضخيم وإثارة القضية على أصعدة متعددة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧]

جعلوا من القضية مادةً للنيل من القرآن وأتباعه، وراحوا يتساءلون ويسألون النبي سؤال استنكار عن الشهر الحرام: «**قتال فيه**»؟

فكان الرد القرآني متزنًا عادلًا وفوقيًّا:

أولًا: وضع أسس الحق وأجلاها، ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، فلا جدال حول وقوع هذا الخطأ، ولا يمكن الدفاع عنه أو تبريره، فالقتال في الشهر الحرم خطأٌ كبير فعلًا.

ثانيًا: لكنّ ما أنتم عليه من صد عن سبيل الله، والكفر به والصد عن المسجد الحرام، وإخراج أهله أتباع القرآن منه، كل ذلك أكبر وأعظم من الخطأ الذي وقع فيه أتباعي، مع الإقرار بخطئهم، ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

انظر لهذه القوة في الرد، والسرد المتنوع لعدد من جرائمهم، يستنكرون خطأً واحدًا، فعدّد مجموعةً من أخطائهم الكارثية، والتي كانت مُتَعَمَدة وسببًا في حدوث خطأ أتباعه أيضًا.

ثالثًا: بناءً على ما سبق، وتوكيدًا على ما عرض ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، وهذا ردٌ وقرار، فما تفعلونه أكبر إجرامًا من حادثة القتل تلك في الشهر الحرام، وسواءً كان المقصود بـ **"الفتنة"** في النص الشرك بالله الذي يمارسوه، أو حدوث **"الاقتتال"** واشتداده بسبب إذكائهم وتضخيمهم لحادثة **"القتل"** في الشهر الحرام، ففي كل الأحوال ما تمارسونه أكبر جرمًا مما صنعه أتباع القرآن في الخطأ ذاك.

رابعًا: أنتم كذَبة، لا تعظمون شهرًا حرامًا ولا تخافون دمًا أو قتلًا، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، فلا تحاولوا إظهار تعظيم الدماء والقتل، فأنتم أكثر من مارسه ويمارسه وستظلون تمارسونه..

خامسًا: ختمَ القرآن دفاعه عن أتباعه بهذا النص الموضح لطبيعتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨﴾ [البقرة:٢١٨]

وهذ النص بعث ثلاث رسائل ختامية قوية واستعلائية:

الأولى: أن أتباع القرآن ليسوا كالمشركين، يقتلون لمجرد القتل، وإشباعًا لغرائز الانتقام فيهم، بل هؤلاء **"آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله"** ومن أجله.

الثانية: أن أتباعه ﴿يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾، وهذه الجملة تحتمل ثلاثة معانٍ:

الأول: أنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا من أجل تحصيل رحمة الله.

والثاني: أنهم ارتكبوا خطأهم الذي فعلوه، وهو **"القتل في الأشهر الحرم"** حال كونهم يرجون رحمة الله، مؤمنين مهاجرين مجاهدين، ومن هذا حالة فليس كمن يفعل ذلك وهو لا يبتغي إلا الدنيا وإشباع شهوة انتقامه.

والثالث: أنهم إنما ارتكبوا خطأهم وهم يظنون أن هذا سيرضي ربهم فيرحمهم؛ لأنهم قتلوا أعداءه، ولم ينتبهوا لحرمة الشهر الحرام أو يُغلِّبوا حرمته وتعظيمه.

الثالثة: من رسائل النص، أن هذا الخطأ الذي وقعوا فيه، وعلى كلِ الاحتمالات السابقة خطأ مغفور لهم في مقابل إيمانهم وهجرتهم وجهادهم وحرصهم على تحصيل رحمة الله، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وبعد، فانظر كيف عالج القرآن هذا الخطأ بعدلٍ وعلو، وحكمة وشفافية ووضوح، وكيف شكّل من الخطأ هجومًا مرتدًا قويًا على حالة وطبيعة المشركين. ولو رجعت وأعدت قراءة النصين على ضوء هذا فستزداد بما أخبرتك يقينًا.

والحمد لله رب العالمين